

## التاريخ في سيرة أبطال

## محمد شريف باشا

كان شريف في عصره رجلاً اجتمعت فيه الرجال  
وكانت مواقفه توحى البطولة وتخلق الأبطال

## للأستاذ محمود الخفيف

— ❦ —



الحكمة، وضرب الحقد على آذانهم وجعل الغضب على أبصارهم غشاوة  
ولكن شريفاً ظهر يومئذ بمظهر جدير بالإعجاب حقاً، فلا هو  
خشى جانب الأجنبي فتخاذل عما هو بسبيله، ولا هو مال كل  
الليل فانقلبت سياسته شططاً، وبذلك جمع شريف على خير ما يرجي  
بين حمة الوطني الثائر وكياسة السياسي الماهر وروية المجرّب البصير  
احتج الأجنبي على إبعاد الوزيرين الأوربيين واستقال كثير  
منهم من مناصبهم، وراحت إنجلترا وفرنسا تهددان الخديو وحكومته  
وتتددان بهما؛ وتوجه الدائنون إلى الحاكم المحتلطة فرفعوا أمامها  
القضايا؛ وأعلنت لجنة التحقيق أن الحكومة في حالة إفلاس منذ  
أكثر من عامين؛ ولما عرض شريف على هؤلاء الأجنبي  
الصاخبين استعداداًه إلى إعادة المراقبة الثنائية كما كانت تقضى به  
تعهدات الخديو في حالة ما إذا أخرج الوزيران الأجنبيان أو أحدهما  
رفضوا ذلك الحل مبالغة منهم في الكيد ورغبة في زيادة الأمور  
حرجاً وتعقداً...

ولكن شريفاً لم يلوه حرج الموقف عن وجهته؛ وما كانت  
وجهته إلا أن يجعل مراد الأمور إلى الأمة، فلئن كان يمتد تدخل  
الأجنبي، لقد كان كذلك يكره استبداد الخديو أشد الكراهية.  
لذلك جعل محور سياسته أن يكون مجلس الوزراء مسؤولاً أمام  
مجلس شورى النواب، ولقد تم له ما أراد فجاء في خطاب الخديو  
إليه بتأليف الوزارة عبارات لا تقبل تأويل فيها يذكر الخديو أنه  
يرجع بالأمور إلى الأمة ويوافق على مسؤولية الوزارة أمام مجلسها  
بهذا كان شريف أبا الدستور في مصر، فإن ذلك المجلس  
الذي تعهده برعايته منذ نشأته عام ١٨٦٦ م قد تمت له السلطة على  
يديه عام ١٨٧٩ م فصار الحكم في مصر حكماً دستورياً لا تشوبه  
شائبة مهما يقول القائلون في طريقة الانتخاب يومئذ وجهل سواد  
الناس بأصول الحكم...

أجل، إن العهد الدستوري في مصر إنما يرجع إلى عام ١٨٧٩ م  
وهذا العهد إنما نالته مصر بمجهود بنينا وعلى رأسهم شريف وما كان  
دستور عام ١٩٢٣ م إلا الدستور الثاني للبلاد، أو بعبارة أخرى  
ما كان إلا توكداً لتلك الجرة التي ظلت مطبوعة تحت رماد الاختلال  
حتى حل سعد محل شريف في الحركة القومية فأزاح ذلك الرماد  
ونفخ في تلك الجرة فأوقد نارها!

كاد الخديو للأجنبي كيداً شديداً؛ وظهر كن يريد أن يثار  
لنفسه فلم يكتف بإجابه الوطنيين إلى ما طلبوا، بل لقد ذهب إلى  
مشاركتهم مظاهر ابتهاجهم بالعهد الجديد حتى لقد حضر بنفسه  
حقلأ أقامه في داره السيد على البكرى ودعا إليه كبار رجال الحركة  
الوطنية فكان موقف الخديو في ذلك موقف الزعيم!  
وتلقى الأجنبي الضربة ولكنهم لم يطيشوا أو يذهلوا عما يجب  
عليهم أن يعملوا إزاء موقف الخديو، ومن أجل ذلك لقيت وزارة  
شريف منهم عنتاً بالغا، فتلاشت في ضوضائهم كل دعوة إلى

خيفة من تركيا ويعتقد أنها تتآمر عليه ، كما كان يفهم أن فرنسا تعطف على المراهبين منذ ظهرت حركتهم . هذا إلى أنه رأى مبلغ نفوذ الأتاجب في خلق أبيه وأحس ما تركه هذا الخلع من أثر في قلب مثل قلبه ...

واقترض الظروف أن يظل شريف بعيداً عن الحكم سنتين عانت فيها البلاد رزايا الحكم المطلق وبلاياتدخل الأتاجب ، حتى هبت الماصفة من ناحية أخرى هي ناحية الجيش

وكانت حركة الجيش أول الأمر قاصرة على مطالب تتعلق برجاله ، ولكن ما لبث أن التقى التياران واتحدت الغاية ، فإن رجال الحركة الوطنية حينما ضاقوا بما فعلت وزارة رياض ، وحينما سدت في وجوههم السبل لم يبق أمامهم إلا الاستعانة بالمسكربين ورأى المسكربون من جانبهم أن في اضطلاعهم بمطالب الأمة ما يرفع من قدر حركتهم فرحبوا بالفكرة وساروا بها لا يلوون على شيء ...

وهكذا تتقاذف السفينة الأنواء وتلقى بها في غيبة ربانها في بحر لحي متتابع الإزباد كأنما جن فيه جنون الريح فلن تبدأ إلا على مناظر الفرق والدمار .

سار عرابي المسكربون بخيله ورجله ومدافعه إلى الخديو يعلن إليه مطالب الأمة وينذره أن لا مرجع للجيش حتى يجاب تلك المطالب ؛ ولم يكن للخديو أمام هذا التحدي إلا أن يجيب عرابيا إلى ما ضمن به على شريف ! ولكنه صرف الجند ليلقى بنفسه في أحضان المشيرين عليه من الإنجليز الذين واتهم الفرصة المرتقبة وأقيلت وزارة رياض كما طلب الجيش ، ودارت أعين الأحرار تلتبس غيره فلم تقع إلا على شريف ؛ وهل كان ثمة غيره تقع عليه العيون ؟ ونظر شريف فإذا الماصفة هوجاء تنذر بفقد الرجاء ففكر في الإحجام ولكن الرجل لم يكن من طبعه الإحجام ، وما كان ليرضى أن يترك البلاد فيما كانت عليه فإنما يعرف ذو العزم في الشدة وعلى قدر عزيمته تكون رجولته .

اشتراط شريف ألا يكون لعبة في يد الجيش فما كان هو بالرجل الذي تهون عليه نفسه إلى هذا الحد ، وقبل الجيش ما اشترطه ، نألف الزعيم الكبير الوزارة وكان أول عمل قام به أن أبعاد زعماء الجيش عن الماصفة فخرجوا طائمين .

لم تكد البلاد وا أسفاه تفرغ من مظاهرها فرحها حتى جاءت الأنباء بمزل عاجلها ، فإن الدولتين ما فتتا تسميان لدى الباب العالي حتى تم لها عزله وإسناد الحكم إلى ابنه توفيق باشا ؛ وبخروج إسماعيل من مصر فقد شريف وفقدت البلاد الرجل الذي كان يمكن الاعتماد عليه في مناهضة نفوذ الأتاجب ...

رفع شريف استقالته إلى الخديو الجديد كما تقضى التقاليد الدستورية ، فطلب إليه الخديو إعادة تأليفها ، وأشار توفيق صراحة في أمره وفي خطابه أمام مجلس الشورى ميله إلى العطف على الأمانى القومية كما تظهر في الحركة الدستورية الوطنية . وسار شريف على نهجه الدستوري يدعم ما بنت يدها ويجهد في توطيد أسسه ...

ولكن توفيقاً ما لبث حين جاءه فرمان التولية أن تنكر للحركة الوطنية فما كان في موقفه الأول إلا مخادعاً يكتب الوقت فلما اطمان إلى مركزه من جهة الباب العالي بدأ سياسته الجديدة بأن رفض أن يجيب رئيس وزرائه إلى ما طلب بشأن توسيع سلطة مجلس الشورى ووضع نظام الحكم على أساس دستوري ثابت ؛ وفي هذا رأى شريف نية إقصائه عن الحكم فاستقال ، وجاءت استقالته هذه المرة أيضاً عاملاً قوياً من عوامل إذكاء الروح الوطنية وإشعال جذوتها

وما كان أحوج توفيق يومئذ إلى شريف وإليه دون غيره من الرجال . أجل ما كان أحوج الخديو إلى ذلك الرجل الذي كانت تجتمع فيه الرجال وتلقى في سياسته الآمال ، وإنى لأزعم هنا في غير مخرج أنه لو بقي شريف في وزارته يؤيده الخديو لكان من الممكن أن تتفادى البلاد تلك الثورة التي جرت عليها نكبة الاحتلال فلقد كانت دسائس إنجلترا في تلك الآونة تنفذ إلى كل ركن وكانت إنجلترا تتحين الفرص وتعمل على تهيتها ، ولو أن شريقاً قد بقي في مركزه لما انجذبت الحركة الوطنية إلى الحزب المسكربي ولسارت سيرها ولو في ببطء إلى غايتها

حل رياض محل شريف فأخذت السياسة الرجعية موضع الحركة الدستورية ، وتلفت الوطنيون ، فإذا الأتاجب يعودون إلى نفوذهم الأول بل إلى أكثر منه وبخاصة إنجلترا التي أوحى بسياستها إلى توفيق أن يتخذ منها سنداً ضد الباب العالي وضد فرنسا وضد الوطنيين ! فلقد كان توفيق يوحس في نفسه

وراح شريف يصل ما انقطع فما كان ليحيد عما وهب للبلاد حياته من أجله؛ فوضع نظام الحكم على أساس دستوري كأحدث الأسس الدستورية يومئذ ودعا البلاد لانتخاب مجلس نيابي . ولما انعقد المجلس ترك له شريف النظر في الدستور وأصوله فجعل منه جمعية تأسيسية يريد بذلك أن يجعل إلى الأمة مرد كل شيء وخيل إلى البلاد أنها استراحت من عنائها ، وأن قد آن لها أن تسير إلى معالجة مشكلتها المالية في هدوء ، وأن تمضي إلى إصلاح مرافقها والهوض بشتى نواحي البناء والتمير فيها ؛ فهذه هي وزارة الأمة حائزة ثقة النواب ، وعلى رأسها الرجل الذي تطلعت إليه آمال الرجال ، وهؤلاء هم نواب البلاد لا غرض لهم إلا العمل لخير البلاد .

ولكن - وما أوجع لكن في هذا الوضع - هناك ... وأأسفاه من وراء ذلك دسائس لا تنام ولا تسهو ، ورؤوساً لم تدبر الأمور كما كان يرجو شريف أن تفعل ، ومطامع شخصية هي علة اللعل فيما أرى في كل خلاف تشتعل ناره في هذا الشرق المسكين ؛ وماذا كانت تجدى إزاء ذلك كله كياسة شريف وروية شريف، وماذا كان ينشئ عنه بعد نظره وحسن تدبره عواقب الأمور؟ وكانت فرنسا هي التي بدأت بالتحرك هذه المرة فأشارت على إنجلترا بالتدخل ، فرنسا التي سندت محمد علي بالأمس ضد إنجلترا حتى جد الجدل فترأخت عنزمتها دون نصرته حتى تحطمت قوته هي وبينها فرنسا التي تشير على إنجلترا بالتدخل اليوم في شئون مصر ! ألا ما أشقى الضعفاء بضعفهم ! كلا، بل لعمري ما أقمس الأقوياء بقوتهم إن كان ما يبتونه لأنفسهم على حساب الضعفاء قصارى سعادتهم وبرهان إنسانيتهم ...

هذا هو مجلس النواب يجادل شريفاً وشريفًا يجادله في أمر الميزانية وحقه في نظرها أو عدمه ؛ أليست هذه مسألة داخلية بحتة ؟ ولكن الدولتين لا تترفان بذلك ؛ ومتى اعترفت ذوات الخالب لنيرها من ذوات اللحم الطرى بمحقها في أن تعيش ؟ إذاً فلنحرم الدولتان على المجلس النظر في الميزانية، ميزانية مصر، وإلا أقممتاه كيف يكون الإذعان للسلطان لا للحجة والبرهان !

وتضيع جهود شريف عبثاً في دعره المجلس إلى الاعتدال ... إلى الاعتدال ؟ أيطلب الاعتدال زعيم ثورى من هيئة ثورية ؟ ذلك

ما راح النواب يتساءلون فيه ؛ ألا يا ويل كل رئيس من الظروف إذا كادت له فقلبت كل عرف لديه نكراً وألبست حوله بالباطل كل حق . لقد وصف اعتدال شريف بأنه خور وأخذت سياسته على أنها مروق ، ألا هل من يعقل أو يتدبر ؟ ألا هل من يستمع له حينما فكر في آخر حل فطلب تأجيل الأمر كله حتى يحثه في هدوء ؟ كلا لن يستمع له أحد . أبستمع إليه عرابى التحفز الثوب ، أو يدين برأيه البارودى الطامح إلى رئاسة الوزارة ؟ أو يسكن إليه المجلس الذى كره الأجانب وتدخل الأجانب حتى لم يعد له على الصبر طاقة ؟

والدولتان أتهاونان أو تريان جانب الحق ؟ كلا . إنما ترسلان إلى الخديو أنهما على استعداد واتفاق لتأييده أمام ما عساه أن يصادفه من المتاعب ، ولا يتردد هو في قبول هذه « الذكرة » ، فتثور ثورة الوطنيين ، ويطلب شريف من الدولتين مذكرة تفسيرية تهدي الخواطر ولكنهما ، وقد أرادتا إثارة الخواطر ، لا تجيبان ...

ويحمل الوطنيون على شريف زعيم الوطنيين فيخرجونه حتى لا يجيد أمامه وسيلة لإقناعهم ، ثم يطالبون بإسقاط وزارته فيستقيل ويعود إلى داره ، فتندفع الثورة هوجاء قد جن جنونها ؛ ويفرح ذوو المطامع من الأجانب ، هؤلاء الذين أجابهم شريف إلى إعادة المراقبة الثنائية ووافقهم على قانون التصفية التي تم في عهد رياض على ما كان فيه من عدوان وظلم ...

وتمضى الثورة في طريقها ، والدولتان في طريقهما ؛ ثم تنفرد إنجلترا فتغافل فرنسا كي تلهم الفريسة وحدها ، وتضرب أساطيلها قلاع الاسكندرية مرتكبة بذلك أشنع ما عرف في تاريخ الحروب من عدوان وغدر ، ويدفع عرابى مصر لتدافع عن نفسها فيكون جهاد فيه قوة وحجاسة ، ولكنه لا يخلو مما منى به الشرق في عصوره الأخيرة من ختل وخيانة ، فتفشل الثورة ويعود الخديو من الاسكندرية ليجد في طريقه إلى قصره فرقة من الجيش البريطانى تصدح موسيقاها بالسلام الملوكى الانجليزى ... ! وتقع على هذا المنظر عينا شريف وقد عاد معه ، فلا يملك - على ما يقول الرواة - ذلك الرجل الكبير دمه فيجشش كما يجشش الطفل ! ألا ما أغزر ما تفيض به الدموع من المانى !

بكي شريف وحق له أن يبكي فهذه جهوده تذهب عبثاً ،

بل هذه مصر تصبح وهي لا تملك من أمرها شيئاً ؛ وما كان شريف غداة طلب من المجلس الأمانة والاعتدال لعمري خواراً ولا مارفاً ؛ بل لقد كان يومئذ يقف أجمل وأعظم موقف في حياته ، ذلك وحده هو الذى استطاعه ، ذلك أنه ما لبث أن رأى الإنجليز هم كل شئ على رغم ما كانوا يذيعونه من وعود بالجلاء فى مشرق الأرض ومغربها

وجاءت الفتنة المهدية فى السودان فأرادت إنجلترا أن تخليه مصر لتعيد فتحه من جديد ؛ وأبى شريف إلا أن يضيف إلى محامده ومآثره فى هذا الوادى مفخرة سوف يقترن بها اسمه الكريم على مدى الأيام ، فرفض ذلك الاقتراح وقال كلمته التاريخية التى تنطوى على كثير من المدانى : « إذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا »

ولكن إنجلترا التى تعترم الجلاء عن مصر تصرح على لسان معتمدها أنه على الوزراء والموظفين أن يعملوا « بالنصائح » التى تسديها حكومة جلالة الملكة وإلا فعليهم اعتزال مناصبهم ؛ ولا يتردد الخديو أن يقبل حتى هذا التصريح ! وعرف شريف من المقصود بهذا التصريح ، وهيات أن تسير الوطنية مع نوايا الاحتلال والعبودية ، لذلك لم يكن بد أن يختم شريف حياته السياسية بالاستقالة من وزارته الرابعة والأخيرة بعد أن قضى فيها عامين ... وكانت هذه كبرى استقلاله إذ كانت تنطق بشهامته

وصراخه ؛ ونفيض برجولته فهو لا يستقيل « لأسباب صحية » ولكنه يحتج على محاولة سلخ السودان وعلى هذا التصريح الذى يتناقض مع الدستور ويتنافى مع الاستقلال ، وكان ذلك عام ١٧٨٤

## قلبي لنفسى ...

حتى العلماء ورثاء النبوة وأولياء الحكمة يجوز عليهم ما يجوز على أتباع الهوى وعباد الشهوة من بنى الأرض ! - وما ذاك ؟

- يقولون إن فى الأزهر عريضة ، فضيحتها طويلة عريضة . وإذا صح ما تلهج به حولها الألسنة فقد استشرى الضلال حتى حارت الهداية ، واستحكم النفاق حتى فجرت الغواية . وإذا ضل الدليل ، فكيف تسلك السبيل ؟ يتحدثون أن نفرًا من العلماء جعلوا قيادهم فى يد الهوى فدلّاهم بفرور ومثام يباطل وزين لهم أن يشنبوا على الإمام الراغبى مظهر الإسلام المشرق ، وممثل رأى الصحيح ، وأول من وحد بين الملك والدين ، ووفق بين الأزهر والدنيا ؛ ففضوا يظهرون عريضة فيها الرجاء والثقة ، ويسترون عريضة فيها التمرد والإفك ، وطافوا بهما على علماء المعاهد يقرأون عليهم ما فوق ، ويضمون أختامهم على ماتحت ، حتى اجتمع لهم من هذه الإمضاءات المشوشة سبعون ونيف ، فدخلوا بها على الأستاذ الأكبر دخول النذير المدل بما وراءه ، فتلقى الإمام هذا التزق بحلم العظيم ورفق الكريم ؛ ثم تدارك الله الحق فبرح الخفاء وشاعت القضية . وقال الأعمى أنا لا أقرأ ، وقال النافل أنا لا أفهم ، وقال الخادع أنا لا أستحي !

بهذا يتحدث الناس وربما كان فى الحديث افتراء ؛ فإن رجال الدين أكرم على الله أن يجعل فيهم هؤلاء ، وهل يخشى الله من عباده إلا العلماء !؟ إبه غير الملك

موقف الشجاعة التى لا تملق السواب ولا تخشى فى الحق ما يملنه رأى العام ، والتى لا يفرها مديح أو يستهويها الحرص على إطراء الجمهور ورضاه ، وموقف الكياسة فى معالجة الأمور ، والنظر فى عواقبها ؛ وإنا لن نجد فى الحق موقفاً يوضح أخلاق شريف ويكشف عن طباعه خيراً من هذا الموقف الجليل . والزعيم الحق هو الذى يهيم بما يراه حقاً ويصر عليه مهما لاقى من عنت ، وإلا فلي أى أساس دون ذلك تقوم زعامته ؟

ودعى شريف بعد الاحتلال لتأليف الوزارة فلم يحجم ، ودخل رياض فى وزارته ، وما كان قبوله الحكم فى تلك الظروف عن رغبة منه فى النصب ، فهو يرى ما يطلبه النصب الآن من جهد شاق وصبر طويل ، وإنما كان موقفه موقف ذى النجدة الذى لا يتسرب إلى عزيمته ومن مادامت فى جسده حياة ... كان موقفه موقف المخلص الذى يصيره إخلاصه وعلى عليه ما يجب أن يعمله حتى ما يستطيع

أن يفلت أو يتردد إن فكر فى ذلك أو مال إليه

وكان طبيعياً أن يجرى فى وزارته على خطته قبل الاحتلال ، أو على الأقل كان طبيعياً أن يقبل تأليفها على هذا الأساس فإن